طريق الحج الحلبي في العصر المملوكي كما وصفه ابن جابر الأندلسي في قصيدته الرائية

د . أحمد فوزي الهيب

أستاذ جامعي سوري درّس في جامعتي الكويت والقصيم سابقاً

تمهيد

قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آياتٌ بينات مقام إبراهيم ومَن دخله كان آمناً ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومَن كفَرَ فإنَّ اللَهَ غنيٌّ عن العالَمين ﴾[1] .

وقال ﷻ أيضاً : ﴿ وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السجود . وأذِّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ مِنْ كل فجّ عميق . ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكُلُوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم لِيَقْضوا تَفَثَهم ولْيوفُوا نذورهم ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق . ذلك ومَنْ يُعظِّمْ حُرُمات الله فهو خير له عند ربه ... ﴾[2] .

بيت الله العتيق ، أول بيت لله وُضع للناس في هذه الأرض ، باركه الله تعالى ، وجعله هدى وأمناً للعالمين ، بنته الملائكة ، ثم جدد بناءه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام[3] ، وأمر الله أبا الأنبياء إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحج ، ثم أمر تعالى الرسول محمداً ﷺ بتجديد تلك الدعوة الطيبة ، فاستجاب

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٦-٩٧ .

(٢) سورة الحج الآيات ٢٦-٣٠ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في شفاء الغرام بأخبار البيت الحرام للحافظ أبي الطيب الفاسي ٩١/١ ، والجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف لجمال الدين بن ظهيرة القرشي ص ١١ .

الناس لدعوته كما استجابوا من قبل ، وأتوا مسرعين راجلين راكبين ملبِّين مكبرين شُعثاً غُبراً من كل فج عميق ، تدفع نسائمُ أشواقهم أشرعةَ قلوبهم ، لا تُثْنيهم مشاقُّ السفر ومخاطر الطريق وطولها ، ليحجوا ، ويُغفر لهم ، ويذكروا الله في أيام معدودة ، ولمّا يزل ذلك الأذان يتجدد كل عام ، وسيبقى إلى ما شاء الله تعالى .

وقد كان أهل حلب – ولمّا يزالوا – موجة مباركة كبرى من أمواج الحجيج التي لا تنتهي ، يحبون الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي والصلاة فيه والسلام على رسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما ، ويفخر الكثيرون منهم بأنهم قد حجوا مرات ومرات ، تصل إلى العشر أو تزيد . وربما كان من أسباب ذلك أن مدينتهم محطة رئيسة يمر بها الحجاج القادمون من تركيا وما يتلوها من بلاد إسلامية في جنوب شرق أوربا ، وفي أواسط آسيا ، وإلى يومنا هذا نشاهد بعض قوافل الحجيج البرية الآتية من تلك الأمصار ، تمر بحلب وتستريح فيها أياماً ، ثم تتابع طريقها .

وكان الأمر على أشد من ذلك في ما سبق من عصور ، يتناسب مع ما كانت عليه حلب منزلة وأهمية واتساعاً ومكانة . ويعنينا في بحثنا هذا العصرُ المملوكي الذي كانت فيه حلب ولاية أو مملكة كبرى واسعة قوية غنية ، الأمر الذي جعلها ، فضلاً عن كونها محطة رئيسة لقوافل الحجيج ، منطلقاً تنطلق منه وفود الحجاج مما حولها من بلاد ، ليرافقوا حجاجها إلى الديار المقدسة . ومن حسن الحظ أن شاعراً مجيداً من أكبر شعراء العصر المملوكي قد وصف رحلة الحج آنذاك أزمنةً وأمكنةً وأشواقاً ، بدقة وعمق . هو ابن جابر الأندلسي .

التعريف بالشاعر : هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المريّي الضرير[1] .

ولد شاعرنا في مدينة المريّة عام ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) ، ودرس فيها وأخذ عن شيوخها ، ثم غادرها مع رفيق عمره أبي جعفر الغرناطي في مطلع شبابهما إلى مصر ، وعُرِفا بالأعمى والبصير ، ثم غادراها إلى دمشق عام ٧٤١هـ ، وسمعا من

(١) وهو غير سميِّه وسابقه زمنا التونسي ابن جابر الوادي آشي

شيوخها ، ثم انتقلا إلى حلب عام ٧٤٣هـ ، وأقاما فيها ، وسمعا ودرَّسا ، وحجّا منها مراراً ، ونُسب إليهما مسجد (طغرل) في محلة باب قنسرين ، والذي بُني زمن ملك حلب الملك العزيز حفيد صلاح الدين الأيوبي عام ٦١٧هـ ، فقيل عنه مسجد النحاة .ولكنهما افترقا قبل موتهما ؛ لأن ابن جابر تزوج بمدينة البيرة[(١)] وسكن فيها ، وبقي أبو جعفر في حلب حتى توفي فيها عام ٧٧٩هـ ، فرثاه ابن جابر رثاء صادقاً ، ثم تبعه إلى دار الخلود عام ٧٨٠هـ .

كان ابن جابر إماماً عالماً فاضلاً بارعاً أديباً أُمة في النحو ، له النظم والنثر البديعان ، نظم أول بديعية في الأدب العربي ، سمّاها (الحلة السِّيَرا في مدح خير الورى) ، والتي عُرفت ببديعية العميان[(٢)]و له كتب عدة في اللغة والنحو والبلاغة والعروض[(٣)] . وهو - فضلاً عن ذلك - شاعر مكثر له شعر كثير متفرق في كتب الأدب[(٤)] ، كما له أيضاً ديوان كامل في مدح الرسول ﷺ[(٥)] .

نظم ابن جابر قصيدة طويلة وصف فيها رحلته إلى الحج وهي قصيدة قلّ أن نجد لها نظيراً في الأدب العربي ، نظمها على البحر الطويل ، وبناها على روي الراء المفتوحة المطلقة ، وذكر فيها منازل الحجيج ومواقيتها من بداية الرحلة في البيرة إلى نهايتها في مكة المكرمة بدقة لافتة للنظر . وهذا يعني أن رحلته هذه قد كانت بعدما غادر حلب ، واستقر في البيرة . وكُتُبُ التاريخ تحدد عام دخوله حلب ، وهو ٧٤٣هـ ، ولكنها لا تدقق في عام مغادرته إلى البيرة ، وإنما نجد في كتاب (إعلام النبلاء) أنه سكن مدة في البيرة قبل موته[(٦)] . فإذا وضعنا في حسباننا أنه قد نال في حلب شهرة واسعة ، وُنسب إليه مسجد (طغرل) ، وأن

(١) البيرة : بلدة قريبة من حلب على شاطئ نهر الفرات في سوريا . انظر : معجم البلدان (٦٢٤/١) .

(٢) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء١٢٢ .

(٣) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٧٨/٥- ٨٠ .

(٤) انتهيت من تحقيقه وأعده للطبع .

(٥) جمعته وسأقوم بطبعة قريباً إن شاء الله .

(٦) المصدر نفسه ٧٩/٥ .

أكثر أولاد الحلبيين تتلمذوا على يديه ، نستطيع أن نصل إلى أنه لا يمكنه تحقيق ذلك إلا بمقام طويل في حلب ، قد يكون امتد قرابة عشرين عاماً . وبذلك نتوقع أن يكون زمن رحلته هذه في ستينيات أو سبعينيات القرن الثامن الهجري ، وكانت هذه الفترة من أكثر فترات السلطنة المملوكية قوة و حضارة وازدهاراً وثراء واتساعاً ، الأمر الذي جعل طريق الحج آمناً ، يجد الحاج فيه ما يحتاجه من خدمات[١] .

كانت رحلة ابن جابر في قسمين أو مرحلتين :

١ - مرحلة أولى قصيرة تمهيدية ، بدأت من البيرة ، وانتهت بحلب .

٢ - مرحلة ثانية طويلة رئيسة أساسية ، بدأت من حلب ، حيث اجتمعت فيها وفود الحجيج الذين أتوها مما حولها من مدن ، لتنضم إلى الحجاج الحلبيين في قافلة كبيرة ، استعد القائمون عليها استعداداً ضخماً يتناسب مع طول طريقها ومصاعبه . لذلك نجده يمكث في حلب سبعة عشر يوماً ، حتى تتم الاستعدادات اللازمة ، ويبدأ الانطلاق . وقد وصف ابن جابر المرحلتين كلتيهما في هذه القصيدة .

قدّم الشاعر لقصيدته التي سماها (واسطة العقدين في مدح سيد الكونين)[٢] بالحث على ترك الدار والأهل والارتحال إلى مدينة الرسول ﷺ قائلاً :

دع الدار وارحل للذي جاء بالبشرى ... وبع دارك الدنيا من الله بالأخرى

دعتنا إلى دار النبوة عزمةٌ ... فقمنا ولم نترك لأنفسنا عذرا

ثم انتقل إلى وصف الفُرات[٣] وكيف تجاوزه بُعيد إشراق الشمس التي ألقت على فضة ماء الفرات ذهبها :

---

(١) العصر المماليكي في مصر والشام ١٢٤ وما بعدها .

(٢) القصيدة مخطوطة ، وتوجد نسخة منها في دار الكتب رقم ١٠١٦ شعر تيمور و ٤٤ ، ٤٩ ، ونسخة في مكتبة وزارة الأوقاف العراقية رقم ٢٩١ ص ١٢٢- ١٢٣ .

(٣) الفرات : هو النهر المشهور ينبع من هضاب الأناضول في تركيا ويمر عبر الأراضي السورية إلى العراق حتى يصب في الخليج العربي .

ولمّا تجاوزْنا الفراتَ وقد غدا — سنا الشمس يلقي فوق فضتها تِبرا

وتحدث عن وداع الأحبة ، وعن آلامه ودموعه :

وقفنا لتوديع الأحبة وقفة — طويتُ بها كشحاً على كبدٍ حرّى

فسرْنا و ولّى القومُ عنّا و ودّعوا — وأيدي النوى ينثرْنَ أدمعنا نثرا

ولكن لا بد من الصبر ، لأن مقصد الراحلين تتجلد في سبيله الأنفس :

صبرنا وقلنا إنما الخير في الذي — قصَدْنا ولولا ذاك لم نستطع صبرا

ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يلتفت إلى الفرات وإلى الأحبة الواقفين على شاطئه ، فلم تكفهِ التفاتةٌ واحدة ، فثنّاها :

وحانت إلى نحو الفرات التفاتة — وما أقنعتْ عيني فزوّدتها أُخرى

ويؤرخ الشاعر لبداية الرحلة فيذكر أنها في آخر أيام شهر شعبان :

فبتنا بنهر الجوز[1] والناس قد رأوا — هناك هلال الصوم واستقبلوا الشهرا

ويذكر الشاعر مسير قافلة الحجيج بعد ذلك إلى المحطة التالية على ضفة نهر الساجور[2] الذي أمتعهم ببهجته وبهائه :

وكان على الساجور بعدُ مبيتنا — فللهِ ما أبهى وأبهجَهُ نهرا

وأما المحطة التالية فكانت بمدينة الباب[3] ، حيث استراح الركب قليلاً ثم تابع مسيره إلى حلب :

وبالباب بتنا بعدُ واللهُ فاتحٌ — بما قد قَصَدْنا بابَ نعمتِهِ الكبرى

فنمنا بها كي نكسر النوم ساعةً — وسِرْنا بعزمٍ لا نطيق له كسْرا

---

(١) نهر الجوز:اسم ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة على نهر الفرات.انظر:معجم البلدان ٢١٣/٢ .

(٢) نهر الساجور : نهر صغير ينبع من جنوب تركيا ويسير شمالي منبج ، وعلى ضفتيه مناطق خصبة ، وقد تغنى به بعض الشعراء قديماً كالبحتري ، انظر : معجم البلدان ١٩١/٣ .

(٣) الباب : مدينة قديمة في الشمال الشرقي من حلب على بعد خمسة وثلاثين كيلاً ، لها ذكر في كتب البلدان ، انظر مثلاً : معجم البلدان ٣٦٠/١ .

وصل الشاعر وصحبه حلب الشهباء بُعيد الفجر ، فتذكّر أيامه السعيدة السابقة فيها ، وطيب مائها وهوائها ، وأثنى على كريم فعال أهلها الذي لا يستطيع أن ينساه ، ولا أن ينساهم ، ولا أن ينسى شكره :

على حلب الشهباء ولّى لنا الدُّجى ... بأدهمه إذ أشهبُ الصبح قد كَرّا
فلما نضا عنها الظلوم نقابه ... كما نُضيَ الجلباب عن كاعب عذرا
رأينا التي أكمل الله حسنها ... وما خالف الإخبارُعن وصفها الخُبرا
كفى الماءُ منها والهواء ففيهما ... من الطيب ما نفسُ العليل به تبرا
وما أنا أسلو عن كريم فعالها ... أولئك قومٌ لست أنسى لهم شكرا

نلحظ هنا استخدامه اسم الإشارة (أولئك) للدلالة على أهل حلب ، ومن خصائص هذا الاسم الدلالة على السمو والعلو والشرف وغيرها من صفات يحمدها الشاعر لأهل حلب ، كما نلحظ أنه خص هذه المدينة بسبعة أبيات ، لما لها من ذكريات طيبة في نفسه ، ولأنها بداية رحلة قافلة الحجيج إلى الديار المقدسة . ويذكر الشاعر المدة التي أمضاها في حلب بانتظار تحرك القافلة ، ويُشرك المتلقي في حساب هذه المدة بطريقة تقارب طريقة الألغاز الشعرية التي كانت سائدة في عصره ، يقول :

أقمنا بها مقدار ما هُيّئ السُّرى ... وقمنا لقصدٍ عنده يُحمد المسرى
وقد مرّ شهرُ الصوم إلا بقيةً ... إذا زدتها يوماً فقد كُمّلتْ عشرا

ويذكر الشاعر مسير القافلة إلى حماة ، التي وصلها إليها بعد ثلاثة أيام ويصف بإعجاب واضح حدائقها الغناء ، ونهرها العاصي ، والأزهار التي حوله ، ويشبهها بالمجرة تحيط بها النجوم :

وثالثَ يوم من حماةَ بدت لنا ... حدائقُ أرخى الحسن من فوقها سترا
ترى النهر يجري كالمجرة وْسطها ... فنحسب غضَّ الزهر من حولهِ زُهرا

ويصف الشاعر تحرك القافلة إلى المدن التالية ، وتوقفها في مدن الرستن[١] وحمص وقارة ، ويشير إلى الحالات التي كان عليها المسافرون من التعب والنشاط بعد المبيت أو القليل من الراحة ، والمشاعر التي يمتلىء بها الحجيج والتي تتوهج بين الحين والآخر ، وخاصة التشوق للوصول إلى المدينة المنورة والسلام على رسول الله ﷺ ، ويتكيء الشاعر على جاه المصطفى ﷺ عند الله تعالى والإحساس بالبركة الغامرة عند ذكره والصلاة عليه ،

فبات عليها الركب ثم مضَوا ضُحى وبالرستن استوفى ومن حينه أَسرى
فصبّح حمصاً و المطيُّ على ونىً فقلتُ أريحوا لا يكنْ أمركم عسرا

ويواصل الشاعر وصف مراحل طريق القافلة إلى أن يصل الركب دمشق صبيحة أول شوال حيث يجتمع جمال المدينة التي يسميها (جنة الدنيا) وبهجة العيد ، ويلفت النظر في حديثه عن دمشق وصفها بأنها (دار الغني) ولا عيش فيها للفقير ، وربما يكون هذا الوصف بسبب إحساسه بغلاء المعيشة فيها ، أو مظاهر الترف المنتشرة فيها آنئذ .

إلى أن نظرنا من دمشقَ لبلدةٍ غدتْ جنة الدنيا فأكرمْ بها قِطرا
ذلك يومُ العيدِ والدهرُ كلُّهُ لساكنها عيدٌ فيا حسنَهُ دهرا
ولكنَّها أرضُ الغنيِّ ودارُهُ ولا عيشَ فيها للذي يجدُ الفَقْرا

وبعد إقامة في دمشق استغرقت ثلث شهر شوال ؛ تواصل القافلة مسيرها إلى حوران[٢] حيث يتبدل الطقس ، وتتكاثر الغيوم ، وتهطل الأمطار غزيرة ، تتحول البراري بحاراً ، وتلجأ القافلة إلى قرية محجّة[٣] ، بانتظار توقف المطر يقول :

(١) الرستن : مدينة على نهر العاصي ، تقع بين حمص وحماة . انظر : معجم البلدان ٣/٤٩ .

(٢) حوران : منطقة واسعة تمتد من جنوب دمشق إلى حدود الأردن ، وبها مدن ومزارع ، وعاصمتها بصرى . انظر : معجم البلدان ٢/٣٦٤ .

(٣) محجّة : قرية في منطقة حوران بسورية لم أجد في كتب البلدان معلومات تفصيلية عنها .

فسِرْنا وشهرُ الفطرِ قد مرَّ ثلثُه ... إلى مَن أرانا شرعُهُ الصومَ والفطرا
فودّعَتِ الركبانُ ثم تتابعوا ... رحيلاً وقالوا إنَّ موعدَنا الزَّورا[1]
ولمّا أتوا حوران عبّس جوُّها ... وأصبح طلقَ الوجه قد أظهر البشرا
فما كان إلا أن ركبنا مطيّنا ... إذا الجوّ يبكي فوقنا بعدما افترا
فأقبلت الأمطار من كل جانب ... علينا وعاد البرُّ من حينه بحرا
إلى أن نزلنا من محجّة جانباً ... ولم نستطع نخطو ذراعاً و لا شبرا
نزلنا وقلنا سوف يرحم ربُّنا ... ويجعل بعد العسر في أمرنا يُسرا
وثانيَ يومٍ بيّض الجوُّ وجهَه ... وأبدى لنا البشرى وجاء بما سرا
فأصبح وجه الأرض قد جفّ ماؤه ... فقمنا بأيدي العيس نلطمه جهرا

سار الحجيج طيلة يومهم حتى مدينة زُرَع[2] ، فاستراحوا قليلاً ، ثم سروا إلى دير خُليف[3] ، وتابعوا مسيرهم حتى بلغوا بُصرى[4] مساء ، وكأنهم أرادوا أن يعوّضوا بإسراعهم هذا تأخرهم الذي سببته لهم الأمطار :

وفي زُرَعٍ باتوا وأسروا فصّبحوا ... بدير خُليفٍ ثم أمسَوا على بُصرى

وبُصرى ليست مدينة كغيرها من المدن التي يمر بها الحجيج ، ذلك لأن لها ذكر في السيرة النبوية[5] حيث انتهت إليها رحلة رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب عندما كان صغيراً ، إذ أرجعه عمه بعدما رأى الراهب بحيرا فيه صفات النبوة ، وحذّر عمه ، وطلب منه أن يعود به خوفاً من أن يؤذيه يهود إذا عرفوه . لذلك

---

(١) الزوراء : موضع في المدينة المنورة قريب من المسجد النبوي اشتهر في عهد الخليفة عثمان بن عفان بالأذان الأول يوم الجمعة عليه ليبدأ الناس بالتوجه إلى صلاة الجمعة ، وكان فيها دار عثمان بن عفان انظر : المغانم المطابة ٨٣٢/٢ .

(٢) زُرَع : موضع بين دمشق وبصرى . انظر : معجم البلدان ١٥٢/٣ .

(٣) دير خُليف : لم أجد في كتب البلدان معلومات تفصيلية عنها .

(٤) بصرى : مدينة مشهورة من أعمال دمشق ، وكانت عاصمة منطقة حوران . المرجع السابق ٥٢٢/١ .

(٥) انظر الرواية في تاريخ الإسلام للذهبي ٥٨/١ .

يراها الشاعر موطن أُنْسٍ يطرد كلَّ همّ . ، ويستطرد في ذكر الرواية التي وردت في بعض كتب السيرة النبوية عن هذا الموضوع ويصف أثر تذكرها في نفوس الحجيج الذين أخذت بهم المشاعر كل مأخذ وبكوا حتى سقت دموعهم الأرض :

فأول بشرى أن رأينا بربعها	**معاهدَ من سِرْنا له نقطع القفرا**
إليها انتهى عند الولادة نوره	**كذاكَ إليها سيرُهُ فافْهَمِ السرا**
ومِن أجل هذا آنسَ اللهُ ربعها	**فكلُّ أخي همٍّ رآها فقد سُرا**
وبعد رحيل الركب منها بساعة	**بدير بَحيرا[١] عند تيماءَ قد مرّا**
هنالك وافى ركبُ مكة مقبلاً	**وفيهم أجلُّ الخلق كلِّهمُ طُرّاً**
وكان بحيرا ناظراً فوق ديره	**فأبصرهُ والسحبُ تمنعه الحرّا**
وشاهد أدواحَ الفلا سجدتْ له	**وكلُّ هشيمٍ مسّه مشيُهُ اخضرّا**
فأكرمَ مثواهم وأحسن في القرى	**وما ركبُهم مِن قبلِ ذا عندهم يقرى**
وإذ باشرَ الآياتِ بشّرَ عمّهُ	**وقد عمَّه نُصحاً وأوسعَهُ بِرا**
فأعلمَه هذا النبيّ الذي ترى	**وكان لدى أشياعه عالماً حِبْرا**
فلما وقفنا ذاكرين لعهده	**إلى أن سقينا الأرض من دمعنا قَطرا**

وبعد ذلك رحلوا إلى الثنيّة[٢] فالزرقاء[٣] ، ثم طلع الفجر عليهم ، وأدوا صلاته في سمنان[٤] ، وتابعوا مسيرهم إلى زَيزا[٥] ، وهي محطة تستريح فيها قوافل الحجاج ، فأمضوا فيها ثلاثة أيام استرجعوا بها نشاطهم :

---

(١) دير بحيرا : ويقال له أيضا : دير بصرى ، وبه كان بحيرا الراهب الذي بشر بالنبي ﷺ . انظر : معجم البلدان ٥٦٩/٢ .

(٢) اسم يطلق على منحنى بين جبلين ، وربما يكون اسم قرية قرب الزرقاء .

(٣) مدينة في الأردن على بعد ثلاثين كيلومترًا من عمان .

(٤) لم أجد في كتب البلدان معلومات عنها .

(٥) من قرى البلقاء بالأردن وتقع في طريق الحجاج ، وكان بها سوق وبركة عظيمة معجم البلدان ١٨٤/٣ .

رحلنا وفي سفل الثنيّة خيّموا وكنّا على الزرقاء واليوم قد حرّا
فساروا وفي أرجاء سمنان خيّموا وقد شاب زنجيُّ الدجى وقضى العمرا
وبعد قضاء الفرض ساروا فأصبحوا بزَيزا وما زالت ركائبهم تترى
أقمنا ثلاثاً نجتني كلَّ نعمة فقمنا على عزمٍ وجدّ بنا المسرى

ثم تابعوا ارتحالهم إلى الحساء[1] قرب مؤتة[2] ، وبعد يومين من المسير وصلوا إلى معان[3] ، فاستراحوا فيها ثلاثة أيام ، واصلوا بعدها رحلتهم المباركة :

وفي ثالثٍ جئنا الحساءَ وخامسٍ معاناً وأياماً ثلاثاً بها قرّا
وقمنا وقام الناس من كلِّ حازمٍ رمى نفسه في البيد واستسهل الأمرا

وفي اليوم التالي نزل الركب مهبط الصوان[4] ، واستقبلوا منبسطاً من الأرض ، أمواجه السراب ، وسفنه الخيل والإبل :

وثانيَ يومٍ أصبح الركب نازلاً على مهبط الصوّان واستقبل القفرا
فمدوا على أرجائها وتقدموا لزاخر بحر يجعلون اسمه بَرا
تَلاطمُ أمواج السراب به وما نرى الفلك إلا الخيل والنجّبَ الضُّمرا
وأضحت فجاج البر منّا عواملاً فترفعنا طوراً وتخفضنا أخرى
ولم يَبقَ إلا الجدُّ مِن كلِّ راحلٍ وأصبح مدُّ السير لا يقبل القصرا

وبعد ثلاثة أيام من مغادرتهم معان ، وصلوا ذات حج[5] في الأول من ذي القعدة :

---

(١) الحسا : لغة : الماء القليل ، وقد سميت به أماكن عدة في بلاد العرب . انظر معجم معالم الحجاز ٥/٢ . ولم أجد معلومات تفصيلية عن المكان المشار إليه هنا .

(٢) مؤتة : مدينة تقع حالياً في المملكة الأردنية الهاشمية جنوب العاصمة عمان ، كانت في عهد المؤلف قرية على طريق القوافل ، اشتهرت بالموقعة التي حدثت فيها في العهد النبوي بين المسلمين وجيش الروم ، واستشهد فيها جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، انظر معجم البلدان ٢١٩/٥ .

(٣) معان : مدينة تقع جنوب المملكة الأردنية الهاشمية ، كانت واحدة من المحطات المهمة في طريق القوافل . انظر معجم البلدان ١٥٣/٥ .

(٤) الصوان : نوع من الحجر القاسي ويبدو أنه أطلق على بقعة أو قرية فيها هذا النوع من الصخور ، ولم أجد في كتب البلدان معلومات تفصيلية عنها .

(٥) ذات حج : لم أجد معلومات تفصيلية عنها في كتب البلدان .

وثالثَ يوم من معانٍ ورودُنا … على ذات حج فارتَوَوا وسرَوا ظُهرا
وعند ابتداء الشهر ذاك وحبّذا … شهورٌ إلى خير الأنام بها بشرى

وتابع الحجيج رحلتهم المباركة حتى رأوا مدينة تبوك[1] ، وقد زاد الضحى نخيلها الجميل اخضراراً ، فشربوا من مائها المبارك ، ويسوق الشاعر خبر تفجر الماء بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[2] ، ويذكر أن القافلة أقامت ليلتين في تبوك ثم تابعت سيرها .

وفي ثالثٍ لاحت تبوك لنا ضحىً … وقد لبست من نخلها حُللاً خضرا
وردنا بها الماء المبارك كيف لا … وذلك مما سيِّدُ الخَلق قد أجرى
أتى عينَها والماءُ كالدمع قد غدا … يبصُّ فلما مجَّ فيها جرَتْ نهرا
أقاموا لديها ليلتين على رضى … و في سحَرٍ أمّتْ مطيُّهمُ الصحرا

وفي السادس من ذي القعدة مرت القافلة بوادي الأُخيضر[3] ، ثم وردت في اليوم التالي ماء الصايغ[4] ، واغتنمت صحو السماء فغذّت السير إلى أن باتت على ماء المعظم[5] :

وجازوا على وادي الأُخيضر ثانياً … وقد قطّعوا من يده مسلكاً وعرا
وجاؤوا إلى الصايغ عشيةَ ثالثٍ … فروَّوا وسارعوا إذ رأُوا الأفق مفترا
وباتوا على ماء المعظّم بعد ذا … وما أحدٌ منهم إلى الماء مضطرا

وبعد ذلك باتوا على ماء الجُنيب[6] ، وسروا قبل الفجر إلى ثمد الروم[1] ، فوصلوا إليه ضحى التاسع من ذي القعدة :

---

(١) تبوك : مدينة تاريخية تقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، تشتهر بمياهها وخضرتها ، وهي محطة رئيسية للقوافل ، اتجهت إليها غزوة سميت باسمها في السنة التاسعة بقيادة رسول اللهﷺ . انظر معجم معالم الحجاز ١٢/١ .

(٢) انظر خبر تفجر الماء بين يدي رسول الله ﷺ من عين تبوك في صحيح الإمام مسلم . كتاب الفضائل . باب معجزات النبي ﷺ ١٧٨٤/٤ .

(٣) وادي الأخيضر : واد يقع جنوب مدينة تبوك ، تجري فيه المياه أيام السنة ، ويبقى مجراه مخضراً بعدها معجم معالم الحجاز ٧٣/١ .

(٤) ماء الصايغ : لم أجد في كتب البلدان معلومات عنه .

(٥) ماء المعظم : مجمع أدوية : في سهل على بعد مئة وثلاثين كيلو متر جنوبي تبوك ، وقد أنشأ السلطان المعظم بركة كبيرة فيه تختزن المياه لتستقي منها القوافل ، وخاصة قوافل الحج .معجم معالم الحجاز ١٩٩/٨ .

(٦) ماء الجنيب : غدير ماء جنوبي بركة المعظم ، انظر معجم معالم الحجاز ١٨٢/٢ .

وبعـدُ علـى مـاء الجُنيـب مبيتُـــهم　　　فروَّوا وساروا قبل أن يبصروا الفجـرا
وفي ثمَدِ الرومِ انجلى الصبحُ ضاحكاً　　　لنـا فلقَطْنـا مِـن حَصى أرضِـــه دُرا

وانتحوا صباح اليوم العاشر مبرك الناقة[٢] ، وفي ظهيرته وصلوا إلى الحجْر[٣] ، وغادروها مسرعين ، لأنها ديار قوم ثمود الظالمين الذين حلّ عليهم عذاب رب العالمين ، وتجاوزوا العلا[٤] بعد الغروب سعداء بخلاصهم من تلك الصحراء الخطرة .

وفي صبحِ ثـانٍ مـبرك الناقـة انتحَـوا　　　وفي ظهر ذاك اليوم قد وردوا الحِجْــرا
وجـازوا العـلا بعـد الغـروب فأكثـروا　　　لِربهم شـــكراً وللمصطفى ذكـــرا
وطــابوا بتخلــيص المفــازة أنفســـًا　　　وآنَ لهـم أنْ يُبصـروا ذلـك البـــــدرا

واستراحوا ثلاثة أيام بعد إسراعهم هذا ، ثم انطلقوا في اليوم الخامس عشر إلى ماء شعب[٥] ماؤه طيب رغم قلته فسقوا إبلهم منه :

أقــاموا ثلاثــاً فاســتراحوا وأودعـــوا　　　وصاروا على عزمٍ وقد خففوا الظهرا
وثـــانيَ يــومٍ أوردوا الشِّــعب عيسَــهم　　　فيـا طيـب ذاك المـاء لـو لم يكـن نـذرا

وفي السادس عشر خيموا بوادي هُديَّة[٦] ، وغادروه سريعاً لأذاه فجر اليوم التالي مجتازين أرضاً سوداء وعرة يبدو أن الحجارة البركانية التي تكثر فيها ،

---

(١) ثمد الروم : موضع بين العلا وتبوك سمي بهذا الاسم قديما لأن جيشا من الروم ماتوا فيه ، وهم يطاردون طائفة من بني إسرائيل . انظر : معجم البلدان ٩٨/١ .

(٢) مبرك الناقة : يطلق هذا الاسم على عدة مواقع في الحجاز : للدلالة على المكان الذي بركت فيه ناقة مشهورة ، ولعل المقصود هنا ، الناقة التي أخرجها الله آية لقوم صالح ، وذلك لقرب هذا المكان من مدائن صالح ، وهو معروف شعبياً بهذا الاسم حتى الآن ، ولم تذكره كتب البلدان بهذا الاسم وهذه الدلالة .

(٣) الحجر : وتسمى أيضاً مدائن صالح ، مدينة قبيلة ثمود الذين بعث الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام ، فكذبوه وطلبوا منه معجزة ، فأخرج الله لهم ناقة فعقرها بعض مفسديهم فأهلكهم الله ، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال بطراً ، وما زالت بيوتهم قائمة للعظة والعبرة . انظر : معجم معالم الحجاز ١٧/٧ ، وانظر قصتهم في تفسير ابن كثير ٥٥٧/٢ .

(٤) العلا : مدينة بجوار الحجر على بعد أربعمائة كلم شمالي المدينة المنورة ، مشهورة بجودة تمورها . انظر معجم معالم الحجاز ١٥٥/٦ .

(٥) الشعب : فتحة بين جبلين تسيل منه المياه عادة وتتجمع في بعض أجزائه . انظر القاموس المحيط ١٨٤/١ .

(٦) وادي هدية : محطة تستريح عندها القوافل ، على بعد ١٩٦كلم ، شمالي المدينة المنورة . انظر : معجم معالم الحجاز ٧٦٩ .

أضرت بالإبل ، وأسالت الدماء من أخفافها ومضوا حتى نزلوا قرب الفحلتين[١] فباتوا فيها إلى الفجر :

ومــن بعــدُ في وادي هُديَّــة خيّمــوا ... علــى مــورد لا بــدَّ منــه وإنْ ضــرّا
وســرنا ووجــه الصــبح أبــيضُ باســمٌ ... فلاقــت مــن الســوداء أجمالنــا شــرّا
فســالت دمــاً فيهــا جِفــانُ مطــيِّنا ... على الصخر كالخنساء حين بكت صخرا
وكــان بقــرب الفحلــتين مبيتهــم ... وإذ رحلــوا خلّــوا وراءهمــا الفجــرا

وأخيراً وصلوا إلى نهاية وادي القرى[٢] ، فهبت عليهم نسائم الحجاز الطيبة ، وملأت قلوبهم سعادة وشوقاً ، وباتوا فيه العشرين من ذي القعدة ، وشربوا من مياهه ، واستمر سيرهم إلى أن وصلوا بلدة تسمى البتراء[٣] :

وبتنا لدى وادي القرى نأنس القِرى ... وننشق من أرض الحجاز به عطرا
وبالسُّــد أوردنــا صــباحاً ولم نــزل ... نُديم السُّرى حتى أتينا على البترا

اقترب الركب من المدينة المنورة ، فخفقت قلوبهم واشتدت أشواقهم ، وتذكر الوافدون ذنوبهم فدخلوا في حوار مع نفوسهم ! وترددوا بين اليأس والرجاء ، ثم ذكروا رحمة الله الواسعة ، فغلب الرجاء لديهم اليأس ، وضج الشوق بهم ، ودفع مطاياهم نحوها ، وساروا بقية الليل ، خافقة قلوبهم ، يسبحون في بحور من الفرح واللهفة والحب ، حتى أشرفوا عليها صباحاً ، فصعدوا ثنية في الطريق فتجلت لهم في ضوء الصباح ، وقد تزينت بحلة خضراء من نخلها النضير ، وملأت ما بين المشرق والمغرب أنوارها التي أخجلت الشمس ، فغاب ضياؤها ، وشاركهم نسيم الصبا يمر ببساتينها ، فالتهبت الأشواق ،

(١) الفحلتين : منطقة شمالي المدينة لها ذكر في السيرة النبوية ، انظر معجم معالم الحجاز ١٧/٧

(٢) وادي القرى : منطقة خصبة بين تيماء وخيبر ، فيها قرى كثيرة وينابيع وبساتين نخل ، ولها ذكر في كتب السيرة النبوية ، تمر بها طريق القوافل بين الشام ومكة . انظر معجم البلدان ٣٤٥/٥ ، ومعجم معالم الحجاز ١٠٠/٧ .

(٣) البتراء : واد شمالي المدينة تمر به القوافل ، يكثر فيه شجر السمر ، انظر معجم معالم الحجاز ١٧٤/١ . وفي الأردن مدينة أثرية تحمل هذا الاسم ، وليست هي المقصودة هنا .

واندفع الشاعر ومن معه إلى المسجد النبوي ، وجرت الدموع غزيرة ، فكان اللقاء وأي لقاء :

فبتنا نناجي النفس كيف لقاؤنا	ولم يُبقِ سوءُ الذنبِ وجهاً ولا عذرا
فنيأس من أجل الخطايا ونرتجي	إذا ما ذكرنا ذلك الكرم الوفرا
وقد أسهرَ الشوقُ الشديد عيوننا	فلا أحدٌ إلا ومقلتُهُ سَهرى
وقمنا وصبّحنا المدينة بُكرةً	فلله من يوم صبيحته غرّا
صعِدنا على أعلى الثنيِّة فانجلَتْ	لنا من نضيد النخل في حُلَّةٍ خضرا
وقد جال بين الشرق والغرب نورها	وغاب ضياء الشمس فيه فما يُدرى
نصبنا أكُفَّ القصدِ إذْ رفعتْ لنا	وذيلُ الصَّبا فوق الحدائق قد جُرّا
وحنَّ جميع الناس حتّى مطيُّهم	فكم أنفسٍ تفنى وكم أدمع تُجرى
ونادى منادي القوم هذا ضريحُه	هنيئاً لمن أسرى هنا تُنقذ الأسرى
فلما سمعناه رمينا نفوسنا	عن العيس براً للذي علّم البرا
إذا أبصر المشتاق بَرَّ ديارهم	وسار على ظهر المطيِّ فما برّا

ويدخل الوفد المسجد النبوي ، وتبدو لهم الحجرة النبوية فيه تتلألأ بالنور ، وهي تحتضن من أنزل عليه القرآن وأسري به إلى السماء ، فتوهج الإيمان في قلوبهم ، وصحت توبتهم من ذنوبهم ، ووقفوا يسلمون على رسول الله ﷺ :

ولّما رأينا النور من حُجرات مَن	تميّز بالفرقان واختص بالإسرا
شددنا عقود العزم منا لتوبة	تعود لنا من غافر الذنب بالبشرى
وقد أفلح السارون واقترب الرضى	وقيل ادخلوا في كهف رحمته الكبرى
دخلنا فسلّمنا وقمنا اتجاهه	قيامَ كسيرِ القلبِ ينتظر الجَبْرا

يذكرنا قوله الآنف بالآية القرآنية الكريمة ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي ﴾[1] .

---

(١) سورة الفجر ٢٨-٣٠ .

ثم سلّم الوفد على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما جارَي الرسول ﷺ في المثوى الأخير ، وذكروا بيض مواقفهما ، ودعوا الله أن يشكرها لهما :

وصلنا إلى الصدّيق نهدي تحية ونشكر في الإسلام أفعاله الغَرا

وقمنا لدى الفاروق صاحبه الرضى نسلّم بالحسنى ونحسن في الذكرى

ثم صلوا في الروضة الشريفة بين الحجرة الشريفة والمنبر ، راجين أن يكون ذلك ستراً لهم من النار :

وفي الروضة العُليا قصَدْنا لربنا صلاة جعلناها لأنفسنا ذُخرا

هناك غدت من جنة الخلد روضةٌ ستُجعل من نار الجحيم لنا سترا

وزاروا بعد ذلك مقبرة البقيع ووقفوا فيها على عدد من قبور الصحابة ، مثل العباس عم رسول الله ﷺ والسيدة فاطمة الزهراء وابنها الحسن وعثمان بن عفان وغيرهم رضوان الله عليهم ، كما زاروا أيضاً قبر سيد الشهداء حمزة ﷺ في أُحد ، ثم مسجد قباء وبقية المساجد ، وقصدوا بعض الآبار التي ورد ذكرها في السيرة النبوية كبئر حا[1] وبئر أريس[2] ، وبعدما فرغوا من ذلك ، يمموا وجوههم شطر البيت الحرام طالبين مكة المكرمة ، ولم يطيلوا في المدينة مكوثهم ، ولم ترتوِ منها أشواقهم ، وقد تركوا ذلك لطريق العودة ، حتى يصلوا إلى مكة المكرمة وعرفات والمناسك الشريفة في الوقت المناسب قبل الثامن من ذي الحجة يوم التروية :

---

(١) بئر حا : ويقال له أيضا : بيرحاء ، وهو من الآبار المعروفة في العهد النبوي ، وكان النبي ﷺ يشرب منها ، انظر : معجم البلدان ٦٢٢/١ ، ووفاء الوفا للسمهودي ٣٦٦/٣ .

(٢) بئر أريس : بئر بالمدينة معروفة ، وقع فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان ﷺ . انظر : صحيح البخاري كتاب اللباس – باب خاتم الفضة ٢٢٠٢/٥ ، معجم ما استعجم ١٤٣/١ . ، ومعجم معالم الحجاز ١٦١/١ .

وزرنا الإمام الحبر مالكاً الرضى | فلم نر قبراً قبل ذا قد حوى بحرا
وحمزةَ زرنا سيّدَ الشهداء كم | أنال الهدى نصراً فحاز به النسرا
وزرنا قُبا ثم المساجد كلها | وبئر أريس قد قصدنا به الطهرا
ومن بئر حاء قد شربنا تبركاً | ومن كل بئر مسّ من مائها قَطرا
ولما فرغنا من زيارة كل من | نؤمّل في نقل الخطى نحوه أجرا
رحلنا إلى أم القرى نُعمل السرى | عسى سورة الإخلاص في حجنا نقرا

غادر الحجيج مدينة الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة[1] ، فاغتسلوا وأحرموا ، ولبّوا وصلوا متتبعين سنن الرسول ﷺ ، وباتوا في تربان[2] ، ثم غادروها إلى الروحاء[3] ، وبعدها مروا على وادي الغزالة[4] ، وهنا يستطرد الشاعر لرواية تعلل سبب تسمية الوادي بهذا الاسم حيث يذكر أن غزالة صادها أحدهم ، فاستجارت برسول الله ﷺ ليطلقها كي ترضع صغارها ثم تعود لصيادها ، فأجارها رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحها لترضع صغيرها ، فذهبت وأرضعته ، ووفت بعهدها ، فعادت إلى صيادها الذي دهش أشد الدهشة فأطلق سراحها وآمن[5] :

---

(١) ذو الحليفة : منطقة غربي المدينة ، تبعد عن المسجد النبوي حوالي ١٢ كم ، وفيها المكان الذي حدده النبي ﷺ ميقاتاً لأهل المدينة ، وقد بني عليه مسجد يعرف بمسجد ذي الحليفة . انظر السمهودي ٢٤٤/٤ ، ومعجم معالم الحجاز ٤٩/٣ .

(٢) تربان : بالضم ثم السكون واد يقاسم ذات الجيش الماء من رأس المفرحات ، يقع على طريق الذاهب من المدينة إلى مكة ، ويبعد أوله عن المدينة مسافة ٢٤ كم ، ثم يتجه جنوباً حتى يدفع في ملل ، وهو الآن قاحل ليس به زراعة . السمهودي ١٨١/٤ ، معجم معالم الحجاز ١٧/١ .

(٣) الروحاء : واد ضيق في أوله ، واسع في أوسطه ، يبدأ من السيالة وينتهي عند المنصرف ، طوله حوالي ٢٥كم . السمهودي ٤١٤/٤ ، الطريق النبوي إلى بدر ص٢٣ . ويسمى أيضاً فج الروحاء .

(٤) لم أجد في كتب البلدان واد في الحجاز بهذا الاسم ، وربما كان جزءاً من الروايات الشعبية التي كانت سائدة في ذلك العصر .

(٥) لم أجد في كتب السيرة ما يثبت هذه الرواية ، ولعلها من الروايات الشعبية التي ظهرت في ذلك العصر ولم تدون .

ولما وصلنا ذا الحليفة بعدما مضت ساعةٌ والركب أجمعُ قد سُرّا
قضوا أرباً من غسلهم وركوعهم ومن سنن المختار قد تبعوا الإثرا
وبعدُ نضَوا لُبس المخيط وأحرموا وقد أعلنوا لبيك واجتنبوا الهجرا
فباتوا على تربان وارتحلوا ضحى فكنا على الروحاء واليوم قد مرا
وجزنا على وادي الغزالة والثرى نشم لخير الخلق من طيبه نشرا
هنالك جاءته الغزالة تشتكي وقد صادها من صاد وامتلأت ذعرا
فنادته لي بالشِّعْبِ خَشْفٌ على الظما وقد صادني هذا ولا أملك الصبرا
فقلبي كسيرٌ موجَعٌ لفراقه وأنت كريم لم تزل تجبر الكسرا
فسرّحها من بعد عهدٍ فأسرعَتْ رجوعاً ولم تسطع خلافاً ولا عذرا

ويصف الشاعر مسير القافلة في وادي الصفراء[1] ، بين مياهه وظلاله الوارفة طيلة يومهم إلى أن وصلت بدراً ، حيث نزل المسافرون بالعدوة الدنيا[2] في المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ، فتذكروا أحداث تلك المعركة الفاصلة التي غيّرت وجه التاريخ ، وتأييد الله لرسوله ﷺ بالملائكة يقودهم جبريل الأمين ، وما كان فيها من معجزاته ﷺ :

(١) وادي الصفراء : واد كثير النخل والزرع يقع في طريق الحجاج بين المدينة المنورة وبدر ويمتد جنوبا . انظر: معجم البلدان ٣/٤٦٨ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾ (سورة الأنفال ٤٢) .

وبالقرب للصفراء باتوا فأصبحوا … عليها فدرّتْ سحبُ خيراتها درا
ومدّت لهم جناتُها الخضر ظلّها … فما أنصفوها حين يدعونها الصفرا
وما زال بين الماء والظل سيرُهم … إلى أن تولى يومُهم فرأوا بدرا
وبالعُدْوَةِ الدنيا نزلنا بحيث قد … أقام رسول الله ينتظر النصرا
بحيث حمى الله الهدى بنبيِّه … وأصحابهِ الأخيار حتى محا الكفرا
مصارعُ أهل البغي قال : أراهمُ … فكان كذاكَ الأمرُ إذ عَظُموا إمْرا
رمى بالحصى في أوجهِ الجمعِ رميةً … ففرّ أشدُّ القوم بأساً وما قرّا
وناول عوداً في القتال حذيفةً … فعاد له سيفاً يبيد العدا قهرا
وأقبلَ جبريلُ الأمينُ بجندِهِ … فلمّا رأى الشيطانُ ما قد رأى فرّا
فبتنا بتلك الأرض نلمح نورَه … وثَوْبُ الدجى في لَبَّةِ الأفق قد زُرّا

وبعد مبيتهم في بدر تابعوا سيرهم إلى رمل عالج[(١)] ، وتجاوزوها ، فنزلوا بطن خبت[(٢)] ، ثم غادروه إلى ودّان[(٣)] ، ثم إلى رابغ[(٤)] التي هلّ عليهم فيها هلال ذي الحجة ، ثم باتوا في البيادر[(٥)] ، وفي الغداة مروا على ذات السويق أو قرقرة[(٦)] الكدر ، ووصلوا إلى خُليص[(٧)] ، وغادروه مسرعين ليبيتوا في ظهر المدرج[(٨)] ، ثم

---

(١) رمل عالج : هو ما يعرف اليوم بالنفود الكبير ، يأخذ في شمال نجد قرب حائل وشمال الحجاز قرب تيماء انظر معجم معالم الحجاز ٢٩/٦ ، فهو بعيد عن طريق الحج بين مكة والمدينة ، ولعل الشاعر أراد تشبيه كثرة الرمال التي صادفتهم في تلك المنطقة برمل عالج ، أو أنه وهم منه والله أعلم .

(٢) الخبت : ما تطامن من الأرض وغمض ، وهو علم صحراء بين مكة والمدينة ، يقال له خبت الجميش ، ويوجد على الطريق أيضاً خبت البزواء والله أعلم انظر معجم معالم الحجاز ١٠١/٢ - ١٠٢ .

(٣) ودان : بلدة مشهورة بالقرب من بدر ، وإليها كانت إحدى غزوات النبي ﷺ ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

(٤) رابغ : مدينة مشهورة حالياً على ساحل البحر الأحمر ، شمالي مدينة جدة بـ ١٩٥كلم وهي إحدى الموانى المعروفة قديماً وحديثاً . انظر معجم معالم الحجاز ٥/٤ .

(٥) البيادر : لم أجد في كتب البلدان معلومات عنها .

(٦) قرقرة ا لكدر : مكان بالقرب من ينبع النخل ، كان به سوق عامرة .ورد ذكرها في السيرة النبوية . انظر معجم معالم الحجاز ٢٥٥/٤ .

(٧) خليص : واد كثير الماء والزرع ، يسكنه ما يقرب من ثلاثين قرية ، يقع على بعد ٩٠ كم شمال شرق جدة ، ولا زال معروفاً بهذا الاسم حتى الآن . انظر : معجم البلدان ٤٤٢/١ ، ومعجم معالم الحجاز ١٤٩/٣ .

(٨) المدرج : يقال لوادي الأبواء إذا مر جنوب المستورة المدرج ، فلعله هو المراد هنا والله أعلم . انظر معجم معالم الحجاز ٦٢/٨ .

ثم مروا بعسفان[(١)] صباحاً ، وبلغوا المنحنى[(٢)] عصراً ، وتابعوا حتى طلع الصبح عليهم في بساتين أبي عروة[(٣)] ، فاستراحوا قليلاً ، وبعد الظهيرة ساروا تدفعهم أشواقهم إلى أم القرى التي ملأت أطيابها وأطيافها نفوسهم قبل أن يصلوا إليها :

فلما تعرَّى الصبحُ عن ثوب ليلهِ … رحلْنا وعِقدُ الشهب يُبدي لنا نثرا
إلى أن قطعنا رمل عالج الذي … تظلُّ القطا في قَطْعِ كثبانهِ حَيْرى
وفي بطن خبت قد نزلنا وفي الدجى … سرَوا وحروف العيس قد كتبت سطرا
وبتنا على وَدّان ثم برابغ … فلاحَ هلالُ الشهرِ للناس وافترا
فسرْنا وبتْنا بالبيادر واغتدَوا … فجازوا على ذات السويق بنا ظهرا
وجاؤوا خُليصاً فارتقَوا وتعجَّلوا … إلى بلد ثقْلُ الخطايا به يُدرا
فباتوا على ظهر المدرَّج واغتدَوا … بعُسفانَ ثم المنحنى نزلوا عصرا
وما صبّحوا إلا أبا عروة الذي … ترى العين من جناته كلَّ ما سرّا
وبعد زوال الشمس ساروا وشوقُهُم … يحثّهمُ قد شبَّ وْسط الحشا جمرا
فباتوا على أدنى المساجد منهمُ … وقد نشقوا من طيب أم القرى عطرا

وبعد هذا السير الحثيث أشرقت الشمس عليهم في الحرم المكي ، فملأت قلوبهم سعادة وغبطة ونشاطاً ، فاغتسلوا من بئر ذي طوى[(٤)] اقتداء بالسنة النبوية الشريفة :

وفي حرم الله اغتدَوا وبذي طوى … قد اغتسلوا كي يتْبعوا السنة الغَرا

وأخيرًا اكتحلت عيونهم برؤية الكعبة المشرفة ، وهم فوق الثنية ، فدنوا منها ، تدفعهم أشواقهم المضطرمة ، وتجذبهم بدائع حسنها المتلألئة ، وخاصة الحجر الأسعد ، فلثموه ، ثم طافوا بها سبعة أشواط ، وصلوا في مقام إبراهيم ، ودخلوا خاشعين حِجْر إسماعيل عليهما السلام ، والتزموا الملتزم ما بين باب الكعبة

---

(١) عسفان : بلدة عامرة على مرحلتين من مكة المكرمة ، وهي مشهورة في كتب التاريخ والسير ، ولا تزال معروفة بهذا الاسم حتى الآن . انظر : معجم البلدان ١٣٧/٤ ، ومعجم معالم الحجاز ٩٩/٦ .

(٢) المنحنى : مكان قرب مكة عند وادي المحيصب ، أنظر معجم معالم الحجاز ٢٨٢/٨ .

(٣) بساتين أبي عروة : لم أجد لها ذكراً في كتب البلدان ولعلها كانت في عصر المؤلف بساتين على أبواب مكة .

(٤) ذي طوى : بئر يقع داخل مكة الآن ، اغتسل رسول الله ﷺ من مائه عند دخوله مكة عام الفتح وكانت خارجها خارجها في واد يسمى باسمها . انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ومعجم معالم الحجاز ٢٣٩/٥ .

والحجر الأسعد حيث تُراق العبرات ، وتُقبل الدعوات ، وتعلّقوا بأستار الكعبة لائذين بها ، ودعوا الله عند ميزابها واستمطروا الرحمات ، ثم سعوا بين الصفا والمروة ، وشربوا من زمزم المباركة ، وتضلّعوا ، لأنها رِيٌّ وطعام وبرء :

وإذ صعدوا فوق الثنيّة أشرفوا ... على صرة الدنيا لِمن فهم السرا
ولّما دنَوا من كعبة الله أبصروا ... بدائع حسن تُخجل الكاعب البِكرا
فمالوا إلى الركن الشريف وقبّلوا ... كما قبّل مشتاق من كاعب ثغرا
فطافوا وختماً بالمقام تركّعوا ... وفازوا بأمنٍ بعدما دخلوا الحِجرا
ومُلتَزَم البيتِ المكرَّم لازموا ... وإنْ علِقوا بالستر كان لهم سترا
وقاموا لدى الميزاب يدعّون ربَّهم ... وفوق الصفا والَوا لِربِّهمُ الذكْرا
إلى أن وفَوا بالسبع حتى إذا انتهوا ... لِمَرْوَتِهم كرّوا لنحْوِ الصفا كرّا
ومن زمزم العذب المذاق تضلّعوا ... فما رجعوا إلا وقد شفَوا الصدرا
وما ماؤه إلا لما قد شربْته ... فسلْ عنده ماشئتَ منْ نِعَمٍ تترى
طعامٌ لمحتاج وماءٌ لذي ظما ... وبرْءٌ لذي سقْم فكم ألمٍ أبرا

لقد بات الشاعر ومن معه في مكان جعله الله الأقدس على هذه الأرض ، ثم زاده قداسة ، فابتعث فيه حبيبه ﷺ ، فكان قراهم عفواً وغفراناً :

فباتوا بأرضٍ عظّمَ اللهُ شأنها ... وأطلع خير العالمين بها بدرا
فكان جميلَ العفو فيها قراهمُ ... ومَن حلّ في دار القِرى كيف لا يُقرى

ثم وصف الشاعر مناسك الحج واحداً واحداً في منى وعرفات والمزدلفة والجمرات والكعبة وصفاً نرى فيه تفصيلات أداء شعائر الحج والمشاعر التي تمتلئ بها نفوس المؤمنين وهو يؤدونها :

ويومَ نزلنا في مِنىً صحَّتِ المُنى فبتنا على إحسانه نحمدُ الدهرا
وفي عرفاتٍ قد عرفنا لربنا مواهب فضل ليس يُحصى لها شُكرا
وفي موقف المختار بالصخرات قد وقفنا بحيث التربُ قد فاخر التِبرا
وبعد زوال الشمس حتى غروبها لِربهم قاموا ينادونه جهرا
فلو كنتَ في ذاك المقام تراهمُ حفاةً عراةً مثلما وردوا الحشرا
وقد تركوا أبناءهم و ديارهم وجاؤوه شُعثاً قصْدَ رحمته غُبرا
وقد خشعت أصواتهم وقلوبهم وأبدَوا لذي العرش التذللَ والفقرا
وضجّت هناك الأرض من دعواتهم وأبدوا بكاء همَّ أن يُبكي الصخرا
فهبّت عليهم رحمة الله هبّة فما منعتْ قصداً ولا تركتْ وِزرا
وتمّتْ عليهم نعمة الله عندما توارى مُحيا الشمس واستقبلوا النفرا
وبالمشعر المبرور بتنا فلم نزل نُديم به التعظيم لله والذكرا
وبعد صلاة الصبح سرنا إلى منى فلما قضينا الرمي والحلق والنحرا
أفضنا فتمّ الحج والبعض قائلٌ لبعضٍ هنيئاً إنَّ حجَّك قد بُرّا
فعُدْنا فأكملْنا المناسك في منى ووجهُ الليالي قد أضاء لنا فجْرا

وبعدما أنهى الشاعر وصحبه مناسك الحج ، أدوا سنة العمرة ، ثم طافوا طواف الوداع ، ورجع كلٌّ منهم إلى بلده الذي أتى منه رغم أن أشواقهم لم ترتوِ ، ولكنها حكمة من الله بالغة ، أشعلت في قلوبهم الحنين إلى أوطانهم وأهليهم ، ودفعتهم إلى أن يتعجلوا رحلة الإياب :

فلمّا اعتمرنا ودّعَ الركبُ راحلا فذا آيبٌ يبغي الشآم وذا مصرا
وما تقتضي أشواقُهم أن يغادروا ولكنْ قضى ربُّ العرش ذلك الأمرا
وما هي إلا حكمة الله كلما قضوا حجَّهم حثّوا لأوطانهم طُرا

وهذه الأبيات تذكرنا بالأبيات الشهيرة التي تُنسب لشعراء عدة :

ولمّا قضَينا مِن مِنى كلَّ حاجةٍ ... ومسّحَ بالأركان مَنْ هو ماسحُ

وشُدّت على دُهْمِ المهارى رحالنا ... ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح[1]

وكم تمنى ابن جابر لو أنه قضى بقية حياته بمكة المكرمة التي لا يمكن أن ينسى ما أحسه فيها من أيام طيبة وصفاء وسعادة ، وما أججته من مشاعر سامية :

وتالله لا أنسى بمكة عيشَنا ... فيا حبذا لو كنت أقضي بها العمرا

نشاهد ذاك السر والليلُ مسبلٌ ... فنبصر حسناً لا نطيق له حصرا

وقد رفعت ما بيننا السِّتْرَ وانجلتْ ... وقالت لكم وصلي فلا تتقوا هجرا

فطاف بها العشاق من كل جانب ... فكلهمُ من وصلها قد قضى نذرا

وقد دُهشوا من حسْن ما شاهدوا فهم ... من الوجد في سكْر وما شربوا خمرا

ومن كان في رقِّ الخطايا تكرَّمتْ ... عليه بحسْنِ العفْوِ حتى انتهى حُرا

كما أثارت مكة المكرمة أيضاً في نفسه أسراباً من ذكريات للرسول ﷺ وآل بيته الكرام الذين شرَّف الله بهم هذه الديار ، وحفِظَها يوم الفيل ، وأكرَمَها بزمزم ، وجعلها تدقُّ رقاب الأعداء دقاً :

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى يزيد بن الطثرية وكثيّر عزة وكعب بن زهير وغيرهم (الشعر والشعراء ٢٢ ، ديوان يزيد بن الطثرية ٦٤) .

إذا طفتُ في تلك الديار كأنني ... أرى المصطفى فيها وآباءه الزُّهْرا
ديار ذوي العلياء من آل هاشم ... فكم وهبوا والجوُّ قد أمسك القطرا
وكم أطعموا وفد الحجيج وكم سقوا ... وكم ستروا عيباً وكم كشفوا ضُرا
تهلّلُ من بشر السماح وجوهُهم ... لأضيافهم والأرضُ عابسةٌ غبرا
وما سدلوا إلا على الصون أُزرَهم ... وما ضيّعوا من شَدّ يوماً بهم أزرا
وما حلّ مرْءٌ منهمُ يدَ جوده ... عن السائل المحتاجُ مذْ عقدوا الأُزْرا
همُ المطعمون الوحشَ في كل شاهقٍ ... هم المانعون الجارَ من كل ما ضرّا
أُناس رسولُ الله صفوةُ مجدِهم ... فإنْ فاخروا مَن ذا يساويهمُ فخرا
به شرّف الله الأباطح منى ... ومكة واستدعى إلى قصدها الضُّمْرا
وأمّنَ يومَ الفيلِ خِيفةَ أهلها ... وردّ بخُسْرٍ مَن أراد بها شرا
ولولاه لم يجعل بمكةَ بيتَهُ ... وأجرى بها من زمزمَ ما أجرى
فبكّتْ رقابَ المشركين فسُمِّيتْ ... ببَكَّة لّما أهلكتْ مَن نوى مَكْرا

وبعد ذلك حث ابن جابر المؤمنين كافة لزيارتها وزيارة الرسول ﷺ ومدينته المنورة ليفوزا الفوز العظيم :

فمن لم يشدَّ الأُزْرَ في قصد بلدة ... بدا المصطفى منها فبالنفس قد أزرى
زيارة خير المرسلين براءةٌ ... لدى الحشر من نارٍ قد التهبتْ حَرّا

وأخيراً ذكر الشاعر غايته من قصيدته هذه ، إنها إيقاظُ همم الناس للحج والعمرة والزيارة والمجاورة ، ومدْحُ الرسولِ ﷺ وذكره وذكر آثاره ودياره لينال شفاعته يوم القيامة ، ثم صلى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين :

فلم يكن الإنسان ينجو بغيره ... إذا زُمَرُ الأموات قد نُشروا نشرا
ذكرتُ طريق القاصدين لوجهه ... لأُوقظ عزم المرء إن نام واغترا
وأعربتُ عن آثاره ودياره ... لأجعله يوم القيامة لي ذُخرا
عليه صلاةُ الله ما هبّتِ الصَّبا ... تُحدِّث كيف الطَّلُّ قد بلَّلَ الزهرا
وللآلِ والأصحاب أهدي تحيةً ... كما الروض أضحى يانعَ الزهر مُخضرّا

وفضلاً عن ذلك تبرّأ ممن نال أيّاً من الصحابة وآل البيت ﷺ بأي سوء ، لأنهم جميعا قد نالوا شرف الصحبة والقربى ، ورضى الله ورسوله ﷺ بما آمنوا وجاهدوا وصبروا وبذلوا ، فكان لهم حق وحرمة وفضل عليه وعلى الناس جميعا إلى يوم القيامة :

وأبــرأ ممــن نــال أصــحابَه بمــا ... يسوءُ فلم يُحسن ومِن مثلِه يُبرا

هــمُ نصــروا دار الرســول وهــاجروا ... فيا عجباً مِن قائلٍ فيهمُ هُجرا

ولــلآل عنــدي حرمــة لا أُضيعــها ... وللصحْبِ حقٌ مَن يُضِعْهُ أتى نُكْرا

ورغم أنه قرر أن الصحابة جميعاً ذوو فضل عظيم ، رأى تقديم أبي بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، وهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة ابن الجراح (رض) . واعترف بأنه لا يستطيع أن يوفيهم حقهم من الثناء ، ومع ذلك فقد وقف شعره ونثره على مدح الرسول وآله ﷺ وصحابته الكرام ، ليحظى بالشرف الرفيع .

ثم ختم قصيدته هذه بالصلاة عليهم جميعاً صلاة أبدية مستمرة استمرار شروق الشمس وطلوع الكواكب والنجوم وجود السحاب بالغيث العميم :

ولاشك في فضل الصحابة كلهم ... ولكــنْ أبــو بكــر بتقديمــه أحــرى

ومن بعده الفاروقُ ذو العزم والتقى ... وعثمان فاذكر ذلك الصابر البَرّا

وبعــدُ علــيٌّ صــهره وابــن عمــه ... فحسبُك مَنْ حاز القرابة والصهرا

وظُــنَّ بأصحاب الرسول جميعِهم ... جميلاً وقدِّمْ منهمُ العشرة الغُرّا

على الآل لو أثنيتُ والعشرةِ الرضى ... وسائرهم ما عشتُ لم أبلغِ العُشرا

وقفْــتُ علــى مــدح الرســول وآلــه ... وأصحابه - ما دمتُ - سجعيَ والنثرا

فــزاحمَ نثــري نثــرة الأفــق رتبــةً ... وجاوز شعري بامتداحهمُ الشِّعرى[1]

علــيهم صــلاةُ الله مــا ذرَّ شــارقٌ ... بــأفقٍ ومــا جــاد الغمــام ومــا درّا

---

(١) الشِّعرى : كوكب نيّر في السماء .

وبعدُ ، فلعل من المفيد أن نختم حديثنا عن هذه القصيدة ببعض الملاحظات السريعة الوجيزة ، وهي :

- تتبع ابن جابر رحلة قوافل الحج من حلب الشهباء ، بل من البيرة ، إلى مكة المكرمة تتبعاً دقيقاً ، أمكنةً وأزمنةً ، لذا نستطيع أن نعدها نوعاً من أدب الرحلات ، أو الأدب الجغرافي يمكن أن تضاف إلى رحلات ابن جبير وابن بطوطة وابن فضلان وغيرهم .
- استغرقت الرحلة من منطلقها إلى مكة المكرمة غايتها الأخيرة ثلاثة أشهر وثمانية أيام ، بدأت من اليوم الأخير من شعبان إلى السابع من ذي الحجة . فإذا أضفنا مثلها لطريق العودة مع مدة أداء مناسك الحج والعمرة والزيارة ، وصلنا إلى أن رحلة الحج الحلبية آنذاك كانت تستغرق سبعة أشهر أو ثمانية .
- أتت قيمتها الجغرافية من أنها ذكرت عدداً كبيراً من الأماكن زادت عن السبعين ، منها ما ذكرته كتب الجغرافية القديمة والحديثة ، مثل معجم البلدان لياقوت الحموي ، والمغانم المطابة في معالم طابة للفيروزابادي ، والروض المعطار للحميري ، وصفة جزيرة العرب للهمداني ، ودرر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة للجزيري ، وأطلس تاريخ الإسلام لحسين مؤنس ، ومعجم معالم الحجاز للبلادي ، والمعجم الجغرافي للبلاد السعودية لحمد الجاسر ، وأطلس التاريخ العربي الإسلامي لشوقي أبي خليل وغيرها . ومنها لم تذكره ، مثل دير خليف والبتراء (غير البتراء المعروفة الواقعة في الآن في الأردن) وغيرهما ، وذلك لتغيّر أسمائها أو اندثارها . ولولا هذه القصيدة وأمثالها مما يمكن أن نسميه الأدب الجغرافي ، نثراً وشعراً ، لضاعت في غيابة النسيان . ورغم عدم وجودها في كتب الجغرافية التي تحدد موقعها ، فإن معرفة موقعها ممكن ، يسهّله سياق القصيدة وتسلسل الأماكن فيها ، وما كان قبلها وبعدها

من مواضع ذكرتها كتب الجغرافية . ولا يعني ما تقدم أننا نعدّ الشاعر معصوماً عن الخطأ والنسيان ، لذلك فإن الأمر مفتوح لأي جديد يقدمه البحث العلمي في هذا المجال .

- لم يذكر الشاعر أية مخاطر اعترضت طريقه ، مما يعني أن الطريق زمن الشاعر (العصر المملوكي) كانت آمنة بعد القضاء على الخطر الصليبي وسيطرة المماليك على البدو .
- كان سلاطين المماليك وأمراؤهم يتقربون إلى الله تعالى بتسهيل طريق الحج وخدمته والعناية به وبالمسجد الحرام والمسجد النبوي وغيرهما من المشاعر ، فضلاً عن عنايتهم بالمسجد الأقصى ، وهذه سنة طيبة أخذوها عن الزنكيين والأيوبيين . وقد أشارت القصيدة إلى بركة الملك المعظم بن الملك العادل الأيوبي التي مرّ ذكرها آنفاً .
- وصف الشاعر المواقع التي ذكرها من مدن ومفازات وسهول وغيرها ، وأبدى رأيه فيها مثل حلب ودمشق .
- نَجد في هذه القصيدة بعض الإشارات التاريخية ، مثل يوم الفيل . واللغوية مثل مكة التي سميت بكة لأنها بَكَّتَ ، أي دقت أعناق الكافرين .كما نجد أخباراً من السيرة النبوية كخبر غزوة بدر التي أفاض الشاعر في ذكرها ، ونجد روايات شعبية كانت سائدة في عصره تنسب إلى السيرة النبوية ، وليس لها أصل في كتب السيرة النبوية المتقدمة كخبر الغزالة التي استجارت برسول الله ﷺ .
- نلمح في كثير من أبيات القصيدة عاطفة الشاعر واضحة جلية صادقة تجاه الرسول وآله ﷺ وصحابته ﷺ والديار المقدسة .
- تظهر الوحدة الموضوعية في القصيدة واضحة من أولها إلى آخرها ، فلا نستطيع أن نقدم بيتاً أو أن نؤخره عن موضعه ، حتى لا تختل القصيدة .

ويدعمها السرد القصصي الذي وسمها بسمة درامية مميزة ، جعلتنا أمام حكاية لها أشخاصها وزمانها ومكانها وبدايتها ونهايتها وجمالها .

- طغت روح السرد على أجزاء كثيرة من القصيدة ، وكان حرص الشاعر على ذكر المواضع وأوقات الرحلة وأحوال الطقس يؤثر على شاعرية القصيدة ويعلي جانب النظم في تلك المقاطع ، في حين كانت الشاعرية تتألق عند المواضع التي ترتبط بذكريات الشاعر (مثل وصفه لحلب) أو بأحداث متميزة في السيرة النبوية (كغزوة بدر) أو عند مواجهة الكعبة ، وعقب أداء المناسك ، حيث يعلو صوت الوجدان ، وتتوالى الصور الفنية ، والتي تنسينا أن الشاعر ضرير لا يعايش المحسوسات البصرية ، ولعله يستحضر من مخزونه الثقافي صور البحر والمراكب وتعري الصبح عن ثوب الليل وذيل الصبا ينسحب فوق الحدائق ونضيد النخل وسط السهل الفسيح ... وغير ذلك من الصور القليلة التي ترد في أجزاء متفرقة من هذه القصيدة المطولة .

وأخيراً تعدّ هذه القصيدة فريدة في بابها ، وإن وجدنا قبلها أرجوزة في موضوعها لأحمد بن عيسى الرداعي اليمني (ت٢٤٧هـ) ، سماها أرجوزة الحج ، وصف فيها طريق الحج من اليمن ، وقسمها إلى معشّرات ، كل عشرة أبيات مشطورة على قافية تختلف عما قبلها وعما بعدها . ومطلعها :

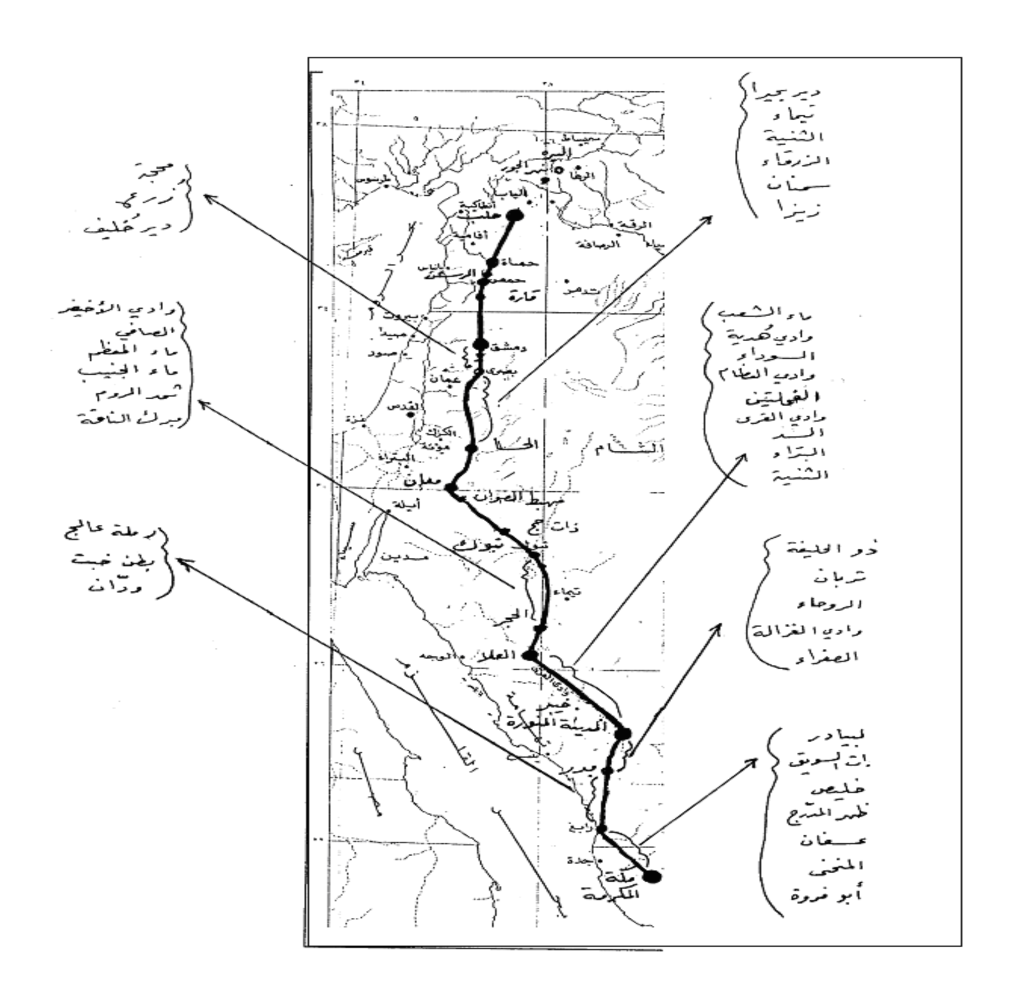
أول مـــا أبـــدأ مـــن مقالـــي فالحمـــد للمـــنعم ذي الجـــلال[1]

وذلك لأنها أقرب إلى المتون اللغوية ، وأبعد عن الشعر . كما نجد بعدها في العصر العثماني (رحلة الوحيدي من حلب إلى البيت الحرام) لحجيج بن قاسم الوحيدي الطبيب التي بدأها من بيته في سوق الجمال تحت قلعة حلب إلى مكة المكرمة ، وكانت بأسلوب نثري غلب عليه السجع والاستطرادات الكثيرة[2]

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٣٥ .

(٢) عدد أوراقها ١٢٨ .عروق الذهب فيما كتب عن حلب ٦٦ .

خارطة طريق الحج الحلبي زمن المماليك كما وصفه ابن جابر الأندلسي



المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطة

- واسطة العقدين في مدح سيد الكونين لابن جابر الأندلسي

١ - نسخة دار الكتب رقم ١٠١٦ شعر تيمور ، و٤٤-٤٩

٢ - نسخة مكتبة وزارة الأوقاف العراقية رقم ٤٩١ ص ١٢٢-١٣٢

ثانياً : المطبوعة

- أطلس تاريخ الإسلام ، حسين مؤنس ، الزهراء ، القاهرة ١٩٨٧م
- أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، دمشق ٢٠٠١م
- أطلس المملكة العربية السعودية ، وزارة التعليم العالي ، الرياض ١٩٩٩م
- إعلام النبلاء للطباخ ، صححه محمد كمال ، دار القلم العربي ، حلب ١٩٨٨م
- البداية و النهاية لابن كثير ، ت أبي ملحم ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م
- تفسير القرطبي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٧م
- الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب ، أحمد فوزي الهيب ، الرسالة ، بيروت١٩٨٦
- درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج ومكة المكرمة ، الجزيري ، السلفية ١٣٨٤هـ
- دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، ت الداية وأخيه ، مكتبة سعد الدين ، دمشق ١٩٨٧م
- دلائل النبوة للأصفهاني ، ت قلعه جي وعباس ، دار النفائس ، بيروت ١٩٨٦م
- دليل المواقع الجغرافية بالسعودية ، مكتبة العبيكان ، السعودية ١٤٢١هـ
- ديوان يزيد بن الطثرية ، ت حاتم الضامن ، بغداد ١٩٧٣م
- الرحيق المختوم ، المباركفوري ، الكتب الثقافية ، بيروت ١٩٩٩م
- الروض المعطار للحميري ، ت إحسان عباس ، ناصر الثقافية ١٩٨٠م
- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ت قمحية ، الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م
- عروق الذهب فيما كتب عن حلب ، عامر مبيض ، جمعية العاديات ، حلب ٢٠٠٤م
- صفة جزيرة العرب ، الهمداني ، ت موللير ، ليدن ١٨٨٤م
- العصر المماليكي في مصر والشام ، عاشور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٩م
- معجم البلدان لياقوت الحموي ، إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٩م
- المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزابادي ، إشراف عبد الباسط بدر ، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ١٤٢٣هـ
- المقاصد الحسنة للسخاوي ، ت محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٨٥م

